عدد (١٠٠٠) من الرسالة

ذكريات وخواطر

للاستاذ على الطنطاوى

لما سمعت أن الرسالة كادت تستكمل أعدادها الألف ، دهشت وفرحت ، كما يدهش من يقال له لقد غدا ولدك شابا ، ويفرح به كأنه يرى شبابه لأول مرة ، وماذاك عن جهل به أو إهمال له ، بل لأنه لا يزال يذكر مولده وطفولته ، ولأنه يراه كل يوم فلا يحس أنه تغير ، ولا يدرى متى جاوز الطفولة إلى الشباب ، وأنا أذكر أبداً فرحتى بصدور الرسالة ، وموقف أخى أنور العطار ، وقد جاء بالعدد الأول منها فخبأه وراء ظهره ، وقال : احزر

— قلت : ماذا ؟ — قال : الزيات أخرج مجلة أدبية

إننى أحس من شدة وقع الفرح فى نفسى لما قالها كأن قد كان ذلك أمس ... فكيف مرت الأيام حتى بلغ عمر الرسالة ألف أسبوع ؟ كيف مر هذا الأمد الطويل ، وكأنه من قصره ليالى الوصال !

* * *

ألف عدد ؟ ! كم أنفقت من ذهنى فى إعداد المقالات لها ، ومن أعصابى فى ارتقاب وصولها ! وكم سألت الباعة عنها ؟ فى شارع رامى فى دمشق ، وفى سوق السراى فى بغداد ، وفى العشار فى البصرة ، وعلى السور فى بيروت ، وعند باب السلام فى مكة ، وعند الجسر فى الدير ، وفى شارع الملوك فى حيفا ، وفى كل بلد عشت فيه أو مررت به ! وكم قرأت بسوداتها وراء مكتب رئيس التحرير فى الإدارة ، وأمام الآلات فى المطبعة ! كانت الأيام عندى السبت والأحد ويوم الرسالة ، وكانت تتبدل على المشاهد ، ويتغير الرفاق ؛ ولكن الرسالة هى رفيق الدائم ؛ أذكر كل عدد منها ، وكل مقالة نشرت فيها ، وكل مناقشة فيها وكل بحث ، ولقد قالت زوجتى أول ما قدمت على :

— إننى لا غيرة لى ، ولكن هذه الرسالة ضرتى

ثم رأت — وهى من أعقل النساء وأفضلهن — أنها ضرة لا تضر ولا تؤذى

* * *

كم وضعت فيها من قلبى ومن فكرى ، ومن مشاهد حياتى ومن ذكرياتى ، ومن آلامى ومن آمالى ، من سنة ١٩٣٣ إلى اليوم (١)

ألف عدد ، وستعيش الرسالة إن شاء الله حتى تبلغ الألف العاشر ، وحتى تكون من أعلاق المكتبة العربية وكنوزها — وقد كانت

ستعيش حتى تصير فى مثل عمر (المقتطف) ، وليست المقتطف — مد الله فى عمرها — بأحق منها بالخلود

ولقد كان للرسالة فضل على اللغة ، وفضل على الأدب ، وفضل على الأخلاق ، وكان لها عمل كبير فى إحياء روح الدين فى دنيا الإسلام

ولقد أخرجت للناس كتابا وشعراء ، وكانت مدرسة للبيان العربى ، جئناها شبابا فشبنا فى ركاب شيوخ الأدب ، وبقينا فيها حتى أوشكنا أن نعد فى الشيوخ ، وهل بعد خمس وأربعين شباب ؟

لقد ولى الشباب ، وذبلت زهرة العمر ، وجاءت الكهولة ، إن نسيتها ذكرتنى بها كل جارحة من جوارحى ، وكل عضو من أعضائى : إن أثقلت الطعام قالت المعدة : حاذر إنك لم تعد شابا . وإن مارست ما كنت أمارس من الرياضة قال القلب : قف إنك لست بشاب . وإن تعرضت للبرد قالت المفاصل : تنبه ، لقد فارقت عهد الشباب

وإن تطلعت إلى الحب ، أو ابتسمت للجمال ، قال الفؤاد الملول السأمان ... وياما أشد ما يقول الفؤاد السأمان الملول !

وإن اشتعلت فى الأعصاب نيران الحماسة ، وأخذت (ذلك) القلم الذى كنت أكتب به فى الأيام الخوالى ، ترامت لى هموم

(١) إنى أرجو من دهرى ناشرا ينشر هذه الكنوز ، أمنا منصفا لا كبعض من عرفت فى دمشق من الناشرين ، من أدعياء الأمانة والشرف والدين

الأسرة ، فأطفأت نار الحماسة فى أعصابى

كنت وحيدا خفيفا ؛ وكان لى جناحان من أحلامى وأمانى، فأثقل ظهرى بناتى الأربع وأمهن وعماتهن وعمة أبيهن ، واصطدم جناحاى بأرض الواقع ، فبينت ضلال الأحلام وكذب الأمانى ، فتحطما ، فكيف يطير بغير جناحين من يحمل هم ثمانى نساء ؟

إنى لأقف الآن لأراجع حسابى ، وأنظر ماذا ربحت وماذا خسرت !

أما الرسالة فقد أفضلت على ، وأضاءت للناس مكانى ، ومشت باسمى إلى بلاد ما كنت أسمع بها ، وجاءتنى بالشهرة والجاه ومجد الأدب ، وعرفتنى بإخوان كرام فى أقطار ما دخلتها ولا أظن أنى سأدخلها ، وهذى رسائلهم تحت يدى من المشرق والمغرب ، من إيران وإندونيسيا واليابان؛ فهل تعلمون أن للرسالة سوقا وقراء فى اليابان ؟ ومن تونس والجزائر ومراكش وأميركا . ولقد كتبت مرة مقالة عن — الحياة الأدبية فى دمشق — فتجاوبت فى الرسالة أصداؤها ببضع عشرة مقالة فيما أذكر عن حياة الأدب فى هاتيك البلدان ، وكانت مناقشة مرة بينى وبين الأستاذ محسن البرازى ، الذى صار رئيس وزراء حسنى الزعيم ، ثم قضى رحمه الله . فجاءنى التأييد من — جاوا — وهذه جريدة — پرس — بشيراز تنشر الآن كتابى الجديد « كلمات » مترجما إلى الفارسية ، بقلم الأديب الفارسى الأستاذ أحمد آرام ؛ مع تعليقات فى المدح والتأييد شعراً ونثراً ، يمن بها على القراء ، وهى على وشك الترجمة إلى الأوردية ولولا الرسالة ما كان هذا كله

ولكن ما جدوى هذا كله ؟ ما الشهرة ؟ ما الجاه ؟

إنى لأكتب هذه الكلمة وأنا فى دار فى مضايا منفردة فى الجبل ، وأنا مريض وحيد منعزل ، فهل أذهبت الشهرة عنى المرض ، أو دفع الجاه عنى الملل ؟ وكذلك أنا فى دمشق ، أنا منذ سنين أعيش فى حلقة مفرغة لا تكاد تتجاوز الدار والمحكمة والسينما ، حتى يوم الجمعة ، وحتى يوم العطلة أذهب إلى المحكمة كالحمار « ولا مؤاخذة .. » الذى يدور بالسانية ، إن أطلقت عنقه من الحبل عاد يدور ، لأنه مربوط من قيد العادة بحبل لا تراه العيون

فماذا ينفعنى فى عزلتى وسأمى أن يمدحنى فى بلاد الله مئة ألف ، وماذا يضرنى أن يذمونى أو ألا يكونوا قد سمعوا باسمى ؟ وماذا يفيدنى وأنا أعيش فى دمشق عيش الغريب ، أن يكون « وهذا هو الواقع — ولا فخر » بين كل عشرة يمرون فى أى شارع فيها ، خمسة على الأقل يعرفون اسمى ، ويحفظون طرفا من مناقبى ، أو أطرافا من مثالبى

ولقد اشتغلت الجرائد منذ سنة أسبوعا كاملا بنشتمى وسبى فى صفحاتها الأولى من أجل تلك الخطبة المشهورة ، وفعلت مثل ذلك أيام الانتخاب سنة ١٩٤٧ ، ونسبت إلى نقائض تشين إبليس ، فهل يصدق القراء أنى لم أبال بها ، حتى أنى لم أقرأ أكثرها . أقسم بالله أن هذا الذى كان ؟ ولقد نشرت الجرائد مرات أخرى أطيب الثناء على ، وألصقت بى مناقب تزين الملائكة فما باليت بها أيضا ، لأن كلا طرفى قصد الأمور ذميم ، والثناء إن زاد كالهجاء إن زاد ، كلاهما أقرب إلى الكذب ، وما أنا ملك ولا أنا شيطان ، ولى حسنات ولى سيئات ، وأنا أعرف بنفسى من سائر الناس ...

* * *

إنى لأسأل مرة ثانية : ما الشهرة ؟

إن الشهرة وهم ليس له فى سوق الحقيقة قيمة ، وليس له فى ميزان الواقع وزن ، حتى أن هذا الحرف « أى الشهرة » لايصح لغة ، ولا تكون الشهرة فى الفصيح إلا بالعيب والعار والفضيحة ، ولكن الألسنة أدارتها على هذا المعنى ، فكتبنا للناس مايفهمون

إن الشهرة سراب زائف ، إنها مثل (المستقبل) الذى يركض وراءه الناس كلهم فلا يصلون إليه أبدا ، لأنهم إن وصلوا إليه صار (حاضرا) وعادوا يفتشون عن مستقبل آخر يعدون إليه . كحزمة الحشيش المربوطة برأس الفرس يسعى ليدركها وهى تسعى معه أبداً !

إننى أقول هذا من أعماق قلبى مؤمنا به ؛ ولقد مر على زمان كان أحلى أمانى فيه أن أسير فيشير إلى الناس بالأيدى يقولون : هذا على الطنطاوى ، وأن أعلو خطيبا كل منبر ، وأن أجد اسمى